العلامة الكبير

الدكتور محمد السويسي(*)

أ. شحادة الخوري

بين سواحل سورية الطبيعية، أرض كنعان التي دعاها الإغريق فينيقية، وشواطئ تونس الإفريقية، جسر ممتد فوق البحر الأبيض المتوسط صنعه الإنسان منذ زمن بعيد، جسر مازال قائمًا حتى اليوم ولم تزده الأيام إلا قوة وصلابة، جسر يربط المشرق العربي بالمغرب العربي برباط القربى والأخوة والمحبة.

دخلت «عليسة» أميرة صور أرض تونس الخضراء، وبعدها دخلها عقبة ابن نافع، ثم جموع بني هلال الكثيفة وحلُّوا في ربوعها وأَنِسوا بالطبيعة الرائعة وأنس قدماء سكانها بهم، فكان التمازج الذي رسم صورة تونس العربية، وزرع في أرضها الوئام والخير والسلام.

أقول هذا لأُفصح عن محبتي لتونس التي سعدت بالعيش فيها سنوات تسعًا، أحسست فيها بأنني في شام ثانية تاريخًا وقيمًا وجمالاً، ووجدت اللغة العربية لغة ابن خلدون والشابي اللغة التي تعشقها الأُذن ويصدح بها اللسان.

وجدت في تونس إخوة وأخوات، أصدقاء وزملاء، في رحاب المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وفي خارجها، مازال شوقي إليهم، بعد مفارقة بلغت خمسة عشر عامًا يتجدد ويقوى، شوقًا يسكن الفؤاد ويملأ القلب.

(*) قد ألقيت هذه الكلمة بتاريخ ٩/ ١١/ ٢٠٠٥ في الحفل التكريمي الذي أقامه المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة» في مقره بتونس للمربي الفاضل والعالم الكبير الأستاذ الدكتور محمد السويسي العضو المراسل لمجمع اللغة العربية بدمشق.

الأحبة كثيرون، ولكنّ للدكتور محمد السويسي مكانًا أثيرًا خاصًا، وربما كان ذلك لتقارب الفكر والمنهج، وتماثل الهدف والأمل، فامتدت صداقتنا ربع قرن حتى الآن فما أوهَنَها بُعْدٌ ولا أضعفها فراق.

عرفته الأديب الأريب، في حديثه عذوبة وحلاوة، وفي تآليفه صدق وبراعة. هو الإنسان الذي بلغ من العلم أكمله فآخى بين الإيمان والعقل، ثم علَّم فأفاد وكتب فجلَّى وألَّف فأبدع، وأذاع المعرفة العلمية، ونشر جواهر التراث العربي الإسلامي، وعرَّف بأعلامه في الرياضيات وسائر العلوم، مُظهِرًا مواطن الإبداع لديهم.

إنه إنسانُ خُلقٍ سامٍ وقيمٍ رفيعة، لا يعرف الحقد والغضب، ولا التعصب الذميم. وفي الأسرة هو الرجل الوقور والزوج العطوف والوالد المحب والجد الودود.

أجل أحببت محمدًا وأجْلَلْتُهُ وأحْلَلْتُهُ في نفسي أخًا وصديقًا، بل اتخذته لي القدوة والمثال علَّني أستطيع أن أقبس بعضًا من فضائله.

لقد قرأت أكثر ما كتب، وإنه ليدهشك بفكره اللماح وشعوره الفياض وتحليله الدقيق وعبارته البليغة واعتماده، في مناقشته الأمور، على التجربة والبرهان وقوة الحجة وبلاغة البيان.

ولست أدري بماذا أستطيع أن أتحدث اليوم عنه وأنا أقلِّب مؤلفاته وتحقيقاته، كتبه وبحوثه ومقالاته. هي ثلاثة وعشرون كتابًا أولها «لغة الرياضيات بالعربية» إضافةً إلى كتبه التدريسية الأربعة، ودراساته المنشورة في دائرة المعارف الإسلامية، ومجلة المباحث ومجلة الفكر بتونس، وحوليات الجامعة التونسية، ومجلتي مجمعي اللغة العربية في دمشق وعمان، ودراسات ومقالات أخرى. وأنا

أتذكر مشاركاته النشيطة والفاعلة في المؤتمرات والملتقيات العلمية والثقافية في النطاق التونسي والعربي والدولي، وهي تنوف على الخمسين، التقينا معًا في ثلاثة منها.

ولست أدري بماذا أستطيع أن أتحدث، بين علماء أجلَّة وأدباء كرام ومثقفين أفاضل... بعضهم زامله في التدريس وبعضهم تتلمذ على يديه وبعضهم قرأ له، وبعضهم كتب عن دوره الرائد في نشر العلم والمعرفة... إن الحديث عنه لعسير، لأنه أوسع من صفحات معدودة ودقائق محدودة، وهل يجمع البحرَ إناء، أو يُختصر العمر في هنيهات، فحسبي أن أشير بإيجاز إلى بعض الإضاءات في فكر الدكتور محمد السويسي.

أول هذه الإضاءات موقفه من الاستشراق في دراسته المتميزة حول «آراء بعض المستشرقين حول التراث العلمي العربي والرد عليها» هذه الدراسة التي نُشرت في كتاب «مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية»، الكتاب الذي أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومكتب التربية العربية لدول الخليج. إنه يلخِّص أهم عناصر الحملة التي شنَّها عدد من المستشرقين الأوربيين على العلم العربي والفكر العربي عامة، بقصد الحطِّ من العرب وإنكار قدراتهم على التحليل والإبداع ووسم تراثهم العلمي بأنه منقول عن الآخرين، وذلك تسويغًا لاستعمار البلدان العربية وسلب حريتها وخيراتها، فادَّعَوا أن بين عقلية العرب الساميين عامة وعقلية الآريين الأوربيين تباينًا كبيرًا، فالعرب نَقَلَة وليس ثمة عِلم عربي، وليس بين العلماء إلا قلة من أصل عربي، وزعموا أن العرب بطبعهم يتأثرون بالأوهام ويميلون إلى الاشتغال بالتنجيم والسيمياء.

وقد أورد الباحث أمثلة من أقوال بعض المستشرقين منهم أميل قوتيي

المولود في كليرمون فران بفرنسا (١٨٨٤- ١٩٤٠): «إن العرب ورثوا عن الكلدان انشغالهم بالتنجيم واستطلاع الغيب، وهذا الانشغال مشرقي أساسًا، كما أن من سمات الفكر المشرقي غلبةَ الروح التجارية الانتفاعية وحدَّة الأنانية وحبَّ الذات».

وقال أرنست رينان (١٨٢٣- ١٨٩٢): «منذ القدم كان الفكر السامي بطبيعته، مضادًا للفلسفة رافضًا للعلم» وقال أندره سرفيي: (إن ما يدعى بالحضارة العربية لا وجود له البتة... فهذه الحضارة إنما أنشأتها شعوب أخرى...).

وينبري الدكتور محمد السويسي متسلحًا بفكره الوقاد ومعارفه الغزيرة للرد على هذه الأكاذيب والمزاعم فيعرِّي العنصرية البغيضة عند هؤلاء، إذ لا وجود لعرق متفوق وعرق وضيع ولا لدم نقي ودم فاسد، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالسعي والعمل الصالح. إن الابتكار والإبداع ليس وقفًا على شعب أو جنس أو موطن، بل هو متاح لكل إنسان وكل جماعة إذا ما ساعدت الظروف والأحوال، ولا يولد مولود إلا في موعد محدَّد وفي حال معيَّنة، وإن العلم العربي حقيقة تاريخية.

وعلى أية حال، فإننا إذا قلنا «العلم العربي» لا نقصد أن أربابه عرب أصلاء من الجنس العربي بل نقصد أنه دوِّن باللغة العربية ونهل أصحابه من الثقافة العربية وعاشوا في كنف الدولة العربية وعلى الأرض العربية، وإن كانوا من أصل غير عربي أو لا يدينون بالإسلام. فالعلم العربي هو نتاج مجتمع ظهر للعيان بعد الفتوح الإسلامية فكانت الدولة العربية موطنه والعربية لغته والثقافة العربية ثقافته وقد تمثَّلت ثقافاتِ الأقوام الأخرى.

وقد دعم الدكتور محمد السويسي رده بأمرين مهمين:

- **أحدهما**: أورد الإضافات التي أضافها العرب لكل علم من العلوم التي نقلوها عن غيرهم ليثبت أنهم كانوا روّاد العلم قرونًا عدة ولم يكونوا نَقَلَة.
- **ثانيًا**: استنبط قواعد المنهج الذي اتَّبعه العلماء العرب، ولم يُعرف عمَّن سبقهم.

ومن هذه القواعد:

لا يكون الحق إلا ما أملت التجربة أنه حق، قال ابن البيطار: «فما صح عندي بالمشاهدة والنظر وثبت لدي بالخبرة لا الخبر، ادخرته كنزًا سريًا، وما كان مخالفًا في القوى والكيفية والمشاهدة الحسية، في المنفعة والماهية، للصواب والتحقيق، نبذته ظهريًا وهجرته مليًا وقلت لناقله أو قائله لقد جئت شيئًا فريًا».

الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنّى وجدها: فقد أقبل العرب على نقل كتب الأولين مهما كانت أرومتهم ومهما كانت نحلتهم الدينية، وجروا على ما جاء في الحديث الشريف: «اطلبوا العلم ولو بالصين».

لا علم بلا عمل، والعلم جد ومثابرة، فقد قال قائلهم: «وإنما مثل العلم بلا عمل كمثل الشجرة بلا ثمر وكمثل الرعد والبرق بلا مطر أو القوس بلا وتر».

وقال جابر بن حيان: «كن صبورًا ومثابرًا وصامتًا ومتحفظًا».

الغرض من العلم فهم الواقع وإدراك دقائقه: لقد مالوا إلى السعي لمعرفة الحقيقة وإدراك الواقع وتحرروا من الاعتبارات الماورائية، وجعلوا العقل إمامهم. وعلى الباحث كما قال أبو الوليد ابن رشد: «ألاَّ يُنْزِلَ العقلَ عن منزلته ولا يجعله وهو الحاكم محكومًا عليه ولا وهو المتبوع تابعًا، بل يرجع في الأمور

إليه...».

لا علم إلا بالعدد: كانت المعرفة في نظرهم مقترنة بالتقدير والقياس، وكان للعدد دور أساسي في العلم العربي عامةً، والمغربي والأندلسي خاصة. ومن ذلك أن علماء الفلك قاموا بتقدير حركات الكواكب وتدقيق آلات رصدهم وتحرير أزياجهم المِجَرِّية.

العلم مشاع بين البشر ولكل امرئ الحق في تحصيله: إن على العالِم ألا يبخل بعلمه على أحد. أَلَمْ يتقاطر الطلاب من أنحاء الغرب على جامعات الأندلس لتحصيل العلم؟

ويؤكِّد الدكتور محمد السويسي بعد عرضه الرائع لهذه القواعد: «أن المعرفة والعلم مشروع بشري هام، وباب مفتوح في وجه كل الشعوب... وأن لكل زمن جولة ولكل أمة دولة». فأين قوله هذا مما قاله العشرات من المستشرقين المغرضين الذين جانبوا الحقيقة والحق ووضعوا أنفسهم مهادًا للمستعمرين الذين سطوا على البلدان العربية، قطرًا بعد آخر، منذ حملة نابليون حتى اليوم من إنكليز وفرنسيين وأمريكيين، امتدادًا لحملات حروب الفرنجة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وفتوح الإسكندر المقدوني والرومان في العصور السالفة من قبل.

ومن الحق أن يقال إن الدكتور محمد السويسي قد فنَّد أقوال المستشرقين الذين زاغ نظرهم عن رؤية الحقيقة فجحدوا فضل العرب بدافع أفكار ومشاعر قَبْليَّة. ولكنه لم يشمل جميع المستشرقين، فَعَنْوَنَ دراسته بكلمة «بعض المستشرقين»، بل هو يعترف لعدد كبير منهم بما أسدَوْه من جليل الأعمال قصدَ التعريف بالحضارة الإسلامية وبالعلوم العربية بوجه خاص... هؤلاء حرَّكوا

عجلة البحث في الغرب والشرق وحقّقوا الكثير من المخطوطات العلمية، بل يذكر بعضًا منهم بالحمد والإطراء مثل لوسيان لوكلير، ورينو وبراون ومايرهوف وموللي وسيديو...

ومن الجدير بالتسجيل أن الحديث عن الاستشراق هو حديث عن العلاقة بين الغرب والعرب، العلاقة الفكرية والسياسية والعقيدية والاقتصادية خلال الزمن، منذ أكثر من ألفي عام. ولعل أقدر من تصدى لشرح هذه العلاقة وسبر أغوارها، بعد أن كان للدكتور محمد السويسي اجتهاده ولمساته وكشوفه، هو المفكّر والناقد والمنظِّر الفلسطيني إدوار سعيد في كتابه المشهور (الاستشراق) (الصادر عام ١٩٧٨) الذي حلَّل فيه العلاقة بين القوة والمعرفة، وأداء الخطاب الاستشراقي العام لوظيفة تعبوية وسياسية وتخييلية خدمت السياسات الاستعمارية وشكَّلت جزءًا لا يتجزأ من مناخات صعود الإمبريالية.

لعمري ألم يَحِنِ الوقت لإحلال علاقة طبيعية بين الغرب والشرق تقوم على الاحترام المتبادل والتعايش المشترك، علاقة تعتمد الإنصاف لا الإجحاف وترتكز على الاعتراف بالآخر وحق كل إنسان وكل جماعة بالحرية والكرامة، والحق في التعلم والتعليم والكشف والإبداع؟ أم ضاقت بأهل الغرب أرضهم المتسعة، فخرجوا إلى أرض العرب، تحرِّكهم أطماع لا تشبع وجشع لا يرتوي، ونزوع إلى السيطرة والاستئثار لا حدود له؟!

والإضاءة الثانية هي (وحدة الفكر) وإيضاح أن الخلق والإبداع هما نتاج الفكر البشري، ويكونان في العلوم بقدر ما يكونان في الشعر والأدب.

ويرى الدكتور محمد السويسي أن العلم والأدب ليسا ميدانين متنافرين أو مجموعتين مغلقتين منفصلتين الواحدة عن الأخرى، ويُورد تأييدًا لرأيه براهين عدة:

• إذا كان الأدباء عامة والشعراء خاصة يرون أن من مزية الأدب أن يخلُوَ الأديب إلى ذاته وينعزلَ عن الجماعة لينصتَ إلى خلجات شعوره ورَفَّات خياله فيصوغَها بألفاظ وعبارات جميلة، فإن قلب العالم مشغول كذلك بما يصبو إليه، ويكون في غفلة تامة عن حوله عند انكبابه على البحث.

• إن العلم كالأدب متعة للروح وغذاء للقلب والعقل، وفيهما كليهما جمال قد يَحُلّ في اللفظ والعبارة والصورة، أو في المعنى والأسلوب والنظم.

• إن الجمال في الأدب هو الجمال في العلم، وروعة الجديد تتجلَّى في معادلة مبتكرة كما تتجلَّى في قصيدة شعرية أو قصة ممتعة.

• إن الخلق والإبداع، في مجال العلم كما في مجال الأدب، حُمَّى تنتاب الجسم وتقطُّع في النفس، حتى يلوح نور من العقل والإدراك، ويكون الإشراق الذي ندعوه الإنتاج الفكري أو المخاض العقلي وولادة الجديد.

ثم يمضي إلى القول: إنه ليس ثمة تنافر بين العمل العلمي وبين ما اتصفت به روائع الأدب والفن من صفات الشمول والعموم والخلود، وإن اكتشاف مَجَرَّة كانت في عالم المجهول يضارع نظم قصيدة من عيون الأدب.

إن في موقف الدكتور محمد السويسي الكثير من الصدق، ولكن مسألة تماثل العلم والأدب ستظل مسألة تتباين فيها الآراء وتختلف فيها الأقوال.

والإضاءة الثالثة والأخيرة هي موقفه من اللغة العربية والتعريب. إن اللغة العربية هي كما يراها الدكتور محمد السويسي، عماد هويتنا ووعاء تراثنا العلمي والأدبي، إنها اللغة التي تنزَّل بها القرآن الكريم واتسعت للعلوم النقلية والعقلية، لغة المعرفة في العالم قرونًا عدة وإحدى اللغات الكبرى في عالم اليوم.

وفي رأيه أن العربية مثلما كانت في الماضي لغة العلم، ففي مقدورها اليوم

أن تكون لغة العلم كذلك.

يقول في دراسة نشرها في مجلة الفكر التونسية عام ١٩٧١ موضوعها: ((نظرات في التعريب)):

((نبدأ القول مؤكِّدين أن تونس لغتها عربية، بذلك نؤمن وعليه نعتمد وفي سبيله عَمِلْنا ومازلنا نعمل، وفي الإيمان بالعربية اعتزاز بشخصيتنا واعتراف بقوميتنا وبشعار من أشد شعاراتها أصالة لائط بأعماق نفوسنا مقوِّمٍ لكياننا)).

ويجيب في الدراسة ذاتها عن سؤال يتردد على ألسنة بعض المشككين بصلوح العربية لغة علم فيقول: ((إن اللغة اليابانية أصبحت لغة علم ولم تكن كذلك من قبل واللغة الغاليكية، لغة إيرلندا، أصبحت بعد انفصال هذا البلد عن إنكلترا لغة علمية ولم تكن من قبل إلا لهجةً قبلية جهوية تابعة للمجموعة الإنكليزية)). ثم يضيف:

وأخيرًا فإن اللغة العبرية أصبحت علمية بعدما كانت في ماضٍ غير بعيد في عداد اللغات الميتة التي لم يكن ليفقهها سوى بعض الرِّبِّيِّين في الطقوس اللاهوتية)).

وواقع الحال، أنه ليس من لغة قابلة لاستيعاب العلم وأخرى غير قابلة، بل كل لغة قابلة للاتساع والارتقاء والوفاء بحاجات أهلها، إذا هم بذلوا الجهود اللازمة لخدمتها؛ فكيف لا تكون العربية لغة صالحة للعلم وهي اللغة ذات الخصائص الباهرة في مبانيها ومعانيها وقدرتها على التوليد والنماء.

لقد توجَّهت تونس عند بداية استقلالها توجهًا عربيًا، فإن أول بند من دستورها:

((إن تونس جمهورية الإسلام دينها والعربية لغتها))، وأتت التصريحات المسؤولة والخطب الرسمية بعد ذلك مؤكِّدة لهذا الركن من هويتها.

ويقول الدكتور محمد السويسي:

- عند التطبيق توالت فترات المد والجزر وصار المشرفون على التنفيذ يقدِّمون

رجلاً ويؤخرون أخرى، وقد نُفذ تعريب التعليم الابتدائي وتوسعت رقعته في الثانوي، وهذا يقتضي تعريب التعليم العالي، ولكن هذا الأخير بقي عشوائيًا يستند إلى بعض مبادرات ومجهودات فردية.

- ويقول: إنه ينبغي ألا نغفل عن هذا العمل ولا أن نتغافل عنه وألا نترك الرياح تجري بما لا تشتهي السفن.

إنه يحث على التعريب وهو يعلم أن هذا الأمر يحتاج إلى إرادة واعية وخطط مدروسة تتضمن توفير ما يتطلب من مستلزمات لضمان نجاحه، ونجاحه هو نصر للأمة وتعزيز للتقدم وإرساء للنهضة.

أيها السيدات والسادة:

الحديث عن الأخ الدكتور محمد السويسي حديث عن آمال أمتنا العربية وتطلعاتها، ولا يفيه حقه حديث وإن طال، فحري بمن يملك القدرة أن يتصدى، دون إبطاء، إلى وضع كتاب مفصَّل عن الرجل الكبير وآرائه ومنجزاته ليكون في أيدي الأجيال مشعلاً هاديًا. لقد كرَّمَتْه هيئات ومؤسسات عديدة بمنحه عضويتها، ويعتز مجمع اللغة العربية بدمشق بعضويته فيه منذ عام ١٩٨٦، ومنحته الدولة التونسية جائزة الإبداع الثقافي في السابع من نوفمبر ١٩٩٧. وإني لأتمنى على المسؤولين في الدولة وفي مقدمتهم **السيد رئيس الجمهورية زين العابدين بن علي** أن يطلقوا اسم العلاَّمة الدكتور محمد السويسي على معهد أو مدرسة ثانوية بتونس، وعلى شارع من شوارعها وأن يُقام مركز ثقافي على اسمه في مسقط رأسه دار شعبان بولاية نابل.

إن في ذلك تكريمًا لرجل أعطى أوفر العطاء، وتزكية لأفكاره ومبادئه وتوجهاته وتخليدًا لرائد كبير يرمز إلى ثوابت هذا البلد هوية ولغة وتاريخًا، وتطلعًا إلى نهضة حقيقية ومستقبل وضَّاء.